مصابنا بالزهراوي والكيلاني

فجعتنا الجرائد المصرية في يوم واحد بنعي الصديقين الوفيين المصلحين السيدين الجليلين عبد الحميد الزهراوي شهيد بني الاتحاديين ، ومحمد وجيه الكيلاني شيخ اسلام الفيليبين . جاءتنا بذلك في أثر تلك الانباء التي شقت المرائر ، واستنفدت الدموع من المحاجر ، أنباء تقتيل جمال باشا لصفوة أبناء سورية وأركان النهضة الاجتماعية فيها ، فالآن الآن قد صار الفؤاد في غشاء من نبال ، فاذا اصابته سهام أخرى تكسرت النصال على النصال

خسرت أمة الاسلام وديار الشام وحزب الاصلاح بالزهراوي والكيلاني رجلين من أفضل رجال العصر عقلا وذكاء وأخلاقا وعلما وأدبا واهتماما بالمصالح العامة ، وتقديما لها على المصالح الخاصة ، وبهذه المزايا تنهض الامم ، وبفقدها تسقط في مهاوي العدم

نبت كل منهما في بيت من أكرم بيوتات القطر السوري شرفا وسؤددا وعلما ومجدا ، وتربى كل منهما في نشأته الاولى تربية علمية دينية ، وأوتي نصيبا من العلوم والفنون العصرية ، واختبر حال الزمان وأهله ، وعرف شدة حاجة بلاده الى التأليف بين المختلفين فيها بالاديان والمذاهب والآراء والمشارب ، فكانا ركنين من أركان الوفاق ، وعاملين من أنفع عوامل الاصلاح ،

فهذا ما اتفق معنا فيه هذان الصديقان الكريمان ، وأما ما اختلفت فيه نشأتهما وسيرتهما فهو ان السيد الزهراوي قد تمرس بالسياسة في حداثته فغلبته على الاشتغال بغيرها مما كان مستعدا له كالتوسع والتصنيف في الفلسفة وعلوم الاخلاق والاجتماع ، فكان أفضل ما يرجى نفعه فيه ما وصل اليه من انتخاب أهل بلاده إياه نائبا عنهم في مجلس المبعوثين . ولا أقول ثم تعيين الحكومة إياه عضوا في مجلس الاعيان ، لان هذا قد كان بعد جعل الاتحاديين مجلس الامة بقسميه آلة لجعل ما تقرره جمعيتهم قوانين نافذة ، وأعمالا منسوبة الى الامة ، وكان الغرض منه خديعته وخديعة العرب به ، الى أن تسنح الفرصة لتنفذ ما قررته الجمعية من قبل من التنكيل

بالعرب والفتك بزعمائهم كما أشرنا اليه في موضع آخر وسنعود الى بيانه

وأما السيد الكيلاني فقد تخرج بالاعمال الادارية الشرعية فكان من موظفي مشيخة الاسلام في الآستانة ، وبهذا وما سبق من مزاياه كان أفضل من يختار لما اختير له من جعله شيخا للاسلام في جزائر الفيليبين، وكان يتقي شر السياسة بالمداراة حتى أنه لما عرج على مصر في ذهابه الى الفيليبين تجاهل معرفة المنار وصاحبه، وهو على مذهبه الاصلاحي ومشربه ، لانه كان يرجو المساعدة من الخديو وحكومته ، وكان الخديو مناضبا لصاحب المنار من بضع سنين . وقد اخبرني بعد ذلك انه كان يفضل طلب المنار من صديقنا السيد محمد بن عقيل المقيم في سنغافوره على طلبه من مصر ، وانه قد تجدد له من الحاجة اليه في منصبه الجديد ما لم يكن يعلمه من قبل. وسنعود الى الكلام في سيرة هذين الصديقين ان شاء الله .

مسألة الازياء والعادات

من مشخصات الامم

زي الامة من مشخصاتها ينبغي لها أن تحافظ عليه وتحترمه وتحتقر من يحتقره كما تحترم العلم الذي هو شارة حكومتها، فالعلم لا يحترم لشكله ولا لونه أو ألوانه، وليس من العقل ولا من الحكمة أن تذم الاعلام أو تمدح لشكلها أو ألوانها، وكذلك أزياء الامم من حيث هي أزياؤها ، ولكن بين الزي والعلم فرقا واحدا وهو أن الزي يقصد به من المنفعة ما لا يقصد بالعلم ، فاذا اشترك مع العلم في أن كلا منهما مشخص للامة مهما يكن شكله ولونه وصفته فانهما يفترقان في أن بعض الازياء لا تفي بما يقصد بها من وقاية الجسم من أذى الحر أو البرد أو سهولة القيام بالاعمال العسكرية والصناعية والزراعية .

ومن الناس من يرجع في اختيار الازياء الى مراعاة الذوق والجمال ، ولكن هذا ليس له قاعدة ثابتة ، وانما يستحسن جماهير الرجال في كل أمة ما يختاره كبراؤها وحكامها ، وانما يعنى بالذوق والجمال في الزي النساء وهن في كل آونة يستحدثن

زيا جديدا يبطلن به ماكان قبله مستحسنا ، ولا يرجع ذلك الى فضيلة في زي اليوم على زي أمس تثبت بدليل علمي أو عقلي . وانما فائدة الجديد لهن جذب الانظار الى السابقات اليه ، وفائدته المالية لتجار الانسجة وصناعة الخياطة لاتخفى ، ويقابل ربح هؤلاء من الازياء خسارة المسرفات فيها، فكم من بيوت خربت بمثل هذا الاسراف

من أكبر جنايات الافراد على أمتهم أن يحتقر أحد منهم زيها ، ويستبدل به زي أمة أخرى تقليدا وتفضيلا لها ، فاذا كان بعض أزيائها ضارا بها ، فالواجب في استبدال غيره به أن يكون برأي أهل الحل والعقد فيها ، الذين يراعون في التغيير المنفعة دون التقليد الذي يبث في الامة الشعور بمهانتها وتفضيل غيرها عليها . وقد وفينا هذا الموضوع حقه من البيان في المنار وقبل المنار في كتابنا (الحكمة الشرعية) الذي كتبناه في عهد طلب العلم ، واقتبسنا منه نبذا في المنار اذ طرقنا باب هذا البحث مرارا .

ولست أبحث الآن في أزيائنا هل يحسن تغيير شيء منها وكيف ينبغي أن يكون التغيير، وانما أريد أن أقول ان بعض الافرنج ينفرون من أزياء الشرقيين ويكرهون أن يأكل في مطاعمهم الخاصة بهم وبالاغنياء المتفرنجين منا من لا يلتزم عاداتهم وآدابهم في الطعام، ومنهم من يرى ان كل من لا يلبس الزي الافرنجي لا ينبغي أن يأكل في تلك المطاعم ، ولهم في ذلك أعذار ومارب ، وقد روت جريدة (وادي النيل) الاسكندرية أن اثنين من المعممين دخلا مطعما افرنجيا فطردا منه لانهما معممان ، وقالت في لومهما انه لا يبعد ان يكونا ذهبا منه الى آخر مثله لعله يقبلهما . وأشارت أيضا الى انتقاد صاحب المطعم الافرنجي . أما نحن فاننا نخص باللوم فريقين من أمتنا : فريق الذين يتصدون لمؤاكلة الافرنج في مطاعمهم، وهم لا يلتزمون آدابهم وعاداتهم . ومنهم من لا يلتزم الآداب الاسلامية التي هي أرقى الآداب ، وفريق المتفرنجين الذين يحتقرون زي أمتهم وعاداتها وآدابها ، ويستبدلون بها غيرها تقليدا للاغيار وتفضيلا لهم على أنفسهم، ويكونون آلة لإضعاف مشخصات أمتهم ومقوماتها وهم لا يشعرون ماوراء ذلك كما يشعر به غيرهم. ومن أراد أن يعرف رأي الافرنج في ذلك فليقرأ خطبة الدكتور سنوك المستشرق الهولندي في

الاسلام ومستقبله التي ألقاها في جامعة كولومبيا من الولايات المتحدة، وقد نشرنا ترجمتها في المجلد السابع عشر من المنار مع تعليق طويل عليها [1] ومن أراد أن يعرف قيمة هؤلاء المتفرنجين في نفس الافرنج فليقرأ ما كتبه في شأنهم لورد كرومر في كتابه (مصر الحديثة)

من أهان أمته باحتقار شيء من مقوماتها أو مشخصاتها بازاء احترام ما يقابل ذلك من أمة أخرى فقد احتقر نفسه أشد الاحتقار، وما قيمة الرجل الذي ليس له أمة محترمة في نفسه، ومن ذا الذي يكرم من يحتقر نفسه باحتقار أمته * ومن لم يكرم نفسه لم يكرم *

اذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه

يجب على كل من أوتي نصيبا من الفهم أو حظا من الشرف أن يقاوم جهد طاقته كل ما فيه احتقار لأمته مهما يكن رأي المحتقر وقصده، ومن ذلك ان لا يأكل احد من المصريين في مطعم يهين اصحابه مصريا لزيه أو عادته أو غير ذلك، ولا ان يشتروا شيئا من تاجر يهين مصريا، ويجب على أمثال هؤلاء ان يبذلوا جهدهم لمنع الاهانة عن أمتهم وإغنائها عن معاملة كل من يقصر في احترامها، وانما يتيسر هذا بتعاضد الاندية والجمعيات الادبية والشركات التجارية

كانت شركات البواخر الافرنجية في الخط الذي بين الهند وخليج فارس وشط العرب تحتقر المسافرين فيها من العرب والفرس ولا تسمح لهم بالاكل على مائدة الدرجة الاولى فلما أنشأ تجار العرب في بومبي شركة البواخر العربية زال ذلك الاحتقار وبطلت تلك المعاملة

واتفق لي منذ بضع عشرة سنة أنني دخلت مطعما سوريا في القاهرة وقت العشاء وجلست الى مائدة من موائده فطلب رجل انكليزي أن أترك تلك المائدة لانه يجلس اليها للطعام ولا يحب ان يأكل مع شيخ أزهري، فلم أبال بطلبه، فطلب من صاحب المطعم ذلك فاعتذر اليه بأنه لا يمكنه ذلك. وقد سألت عن اسم الرجل وعمله وذكرت ذلك لصديقي مستر منشل أنس الذي كان وكيلا لنظارة المالية

(١) راجع ص ٢٠٩ و ٢٦٨ م ١٧

وقتئذ فاستاء من ذلك وكتب كتابا الى رئيس ذلك الرجل في مصلحة السكة الحديدية كلفه فيه ان يلزمه الاعتذار الي، واخذت الكتاب بنفسي وعدت راضيا مكرما

ولا يخفى على عاقل أن ما نحتاج الى اقتباسه من علوم أوربة وفنونها وصناعاتها لا يقتضي هذا التفرنج الذي نذمه ولا يأتي من طريقه بل ينافيه ، لان التفرنج تقليد في الازياء والعادات يحدث التفرق في الامة وانحلال روابطها، واقتباس العلم النافع والعمل الرافع يجب ان يكون بطريق الاستقلال لا التقليد ، وان تراعى فيه حاجة الامة في العمل و يقصد به ترقية ثروتها وعزة دولتها، ولم نر هؤلاء المتفرنجين من الترك والمصريين ساروا على ذلك الدرب ووصلوا الى هذه الغاية ، بل هم الذين نسفوا ثروة بلادهم وقطعوا روابطها حتى وصلت الى ما هي عليه، وليس في بلادهم شيء من العمران إلا وقد كان بعمل الاجانب ومعظم فائدته لهم ، وانما سار على ذلك شعب اليابان الذي شرع في اقتباس الفنون الاوربية بعد الترك والمصريين منا، فكان طلاب العلوم منهم في أوربة يتلقون العلوم العملية، اذ يتلقى الطلاب منا العلوم النظرية والسياسية، وكانوا مثال الجد والعمل والاقتصاد، اذ كان أكثر طلابنا مظهر الفسق والسرف والفساد

واليك من العبرة هذا المثال : كان بعض الاوربيين والاوربيات مع بعض اليابانيين في بلاد اليابان فخلع ياباني نعله في المجلس ، فأنكر عليه ذلك بعض الاوربيين لان خلع النعال أو الجلوس بغير نعلين مستهجن في عاداتهم ولا سيما حيث يوجد النساء. فقال الياباني : انا ياباني لا أوربي وهذه البلاد يابانية لا أوربية فبأي حق تطالبوننا باتباع عاداتكم في بلادنا والواجب عكسه؟ أو قال كلاما بهذا المعنى. فهذه هي الوطنية لا ما يتشدق به المتفرنجون الذين لا يعقلون عاقبة ما يأتون ومايدعون

قلنا ان اقتباس الفنون النافعة من الغربيين — وكذا ما يستلزمه من اعترافنا بجهلنا وبحاجتنا الى علمهم — لا يعد احتقارا للأمة بل اصلاحا ، ونقول أيضا اننا في حاجة الى الإصلاح في كثير من العادات الضارة ، وأن ذلك لا يعد احتقارا للامة وطالما كتبنا في ذلك . ومن أبواب المنار الواسعة باب (البدع والخرافات والتقاليد والعادات) وانما الواجب أن نعتمد في هذا الاصلاح على شريعتنا وهي أكمل الشرائع وآداب ديننا وهي أكمل الآداب